

مسألة الهوية في الصحافة الجزائرية خلال فترة الاستعمار

د.تومي أم الخير

لم تبرز الهوية كمسألة مركزية بالجزائر في الخطاب السياسي والإيديولوجي فحسب بل تعدته إلى الخطاب الإعلامي الذي تأثر بدوره بالصراع الحاصل على المستويين الإيديولوجي والسياسي .

حمل الخطاب الإعلامي شحنة ذلك الصراع حول الهوية وخلفيات المتصارعين حولها لينقل بذلك تفاصيل معركة حقيقية بين النخب المثقفة بهذا الحقل بين مؤيد للهوية العربية - الإسلامية للجزائر والرافض للتشبه بغرب "الاحتلال" وبين الداعي إلى الانفتاح والحداثة و النابذ لكل شوفينية غارقة في حضارة الأوهام.

لا أحد يشك انه كان للصدمة الاستعمارية CHOC COLONIAL وقع كبير على المجتمع الجزائري إلى درجة أنها غيرت وبشكل جذري من الملامح المجتمعية والثقافية للجزائر، إذ يمكن تشبيه ذلك الحضور "بالزلزال" من منظار أن "ما وقع سنة 1830 في الجزائر ليس احتلال فرنسا للجزائر (...) بل احتلال "العصر الحديث" للعصر الوسيط" أو "احتلال التقدم للتخلف" على حد تعبير سعد الله¹.

كان لحضور ثقافتين مختلفتين تنتمي إلى حضارتين متباينتين (الأوروبية - العربية الإسلامية قبلها) دورا كبيرا في التغير من ملامح الحقل الثقافي الجزائري الذي أصبح يعيش على وقع مجابهة وصراع بين أنصار الثقافتين... ومن أهم مظاهر هذا الانفصام هو بروز قيادة مثقفة جديدة في الجزائر مختلفة في التكوين ومتناقض في منطق التفكير وفي أسلوب التعامل مع الأحداث.

يمكن القول انه تجمعت في تلك الفترة - فترة الاحتلال - أهم العوامل التي أثارت مشكلة الهوية والانتماء بالجزائر ومن مظاهرها ميلاد ظاهرة "الثنائية"

أو "الازدواجية" النخبوية على عدة مستويات منها مستوى الصحافة المكتوبة التي لعبت دورا استراتيجيا في التعبئة والهيمنة المعنوية.

لا يتناول هذا المقال قضية الهوية في شموليتها نظرا لتشعبها ودخول اطر و حقول أخرى خاصة السياسية في تعقيدها بل سنركز على فكرة كيف طرح وناقش الإعلام الجزائري المكتوب إبان الاستعمار الفرنسي قضايا الهوية والانتماء.

سنبحث في طبيعة القراءة والوظيفة التي أعطتها النخب الجزائرية المثقفة لعناصر الهوية في صحافتها آنذاك ؟ أي كيف تحدت ملامح تصوراتها وتقييمها ومشروعها الاجتماعي والثقافي المقترح؟؟

ستوقف في غضون ذلك عند بعض صور التناقض والصراع الفكري والانقسامية التي ميزت النخب المثقفة الجزائرية على مستوى الصحافة المكتوبة خلال فترة الاستعمار و ذلك من منطلق أن فئة الإعلاميين كغيرهم من المثقفين تبني هويتها نتيجة لتاريخ هذا البلد انطلاقا من مرجعيات لغوية و ثقافية - مزدوجة - تنطوي على مختلف مراحل اندماجهم الاجتماعي.

(1) لتفاصيل أخرى حول هذا الموضوع طالع أطروحة دكتوراه لـ تومي أم الخير ، الخطاب الإعلامي و الازدواجية الثقافية بالجزائر، قسم علم الاجتماع كلية العلوم الاجتماعية ، جامعة وهران ، 2010 .

1- ميلاد الصحافة الجزائرية وبداية معركة التحرر الفكري بالجزائر المحتلة:

إنّسم الجو الثقافي العام بالجزائر مع مطلع القرن العشرين بنشاط مكثف للكثير من النوادي والجمعيات الثقافية² زيادة على ظهور العديد من الصحف من إنشاء بعض المثقفين الجزائريين .

استعملت النخب الجزائرية اعتقادا منها بأن الصحافة "رسالة حضارية" صحفها لطرح قضايا المجتمع وهي من خلال ذلك تكون قد عكست تصورها وتقييمها

ومشروعها الاجتماعي والثقافي للجزائر، فإلى جانب قيام بعضها بعملية تعبئة و توعية الجزائريين قصد الدفاع عن حقوقهم السياسية ودعوتهم لليقظة، فإن البعض الآخر من الصحف لاسيما التابعة لجمعية العلماء المسلمين سخرت نسبة كبيرة من مواضيعها للدفاع عن العربية باعتبارها لغة وطنية وعن الإسلام باعتباره نظام حضارة الجزائرية.

كما كانت هذه الصحف مجالا لتشكل صراعات وتناقضات في قيم ومعتقدات ومشاريع وتصورات النخب الجزائرية (متجرو الخطاب)، إذ لم تخل الصحف من أساليب التهكم والتهجم والنقد اللاذع إلى درجة الصراع والسبب الأساسي لذلك هو فشل الاستعمار في إرضاء وتحقيق مطالب بعض الأحزاب و النخب الجزائرية يقول سعد الله .

ونشير أن من أهم المواضيع التي طرحتها وناقشتها الصحف الجزائرية آنذاك كانت مسألة الوحدة بين الجزائريين وقضية التعليم والتمثيل النيابي وإلغاء قانون الأهالي بالإضافة إلى مسألة التجنيد الإجباري والمساواة مع الفرنسيين.

نعترف أن الصحافة الجزائرية لعبت خلال فترة الاستعمار دورا بارزا في معركة التحرر الفكري رغم تفشي الأمية من جهة والاضطهاد الذي تعرضت له وإجراءات القمع والتعطيل التي لقيتها على يد الاستعمار الفرنسي من جهة ثانية.

وتأتي على رأس هذه الصحف جرائد " الجزائر " لعمر راسم (1908)، "الفاروق" لعمر بن قدور، "الإقدام" للأمير خالد، "المتقّد" و"الشهاب" لابن باديس و"الإصلاح" التي صدرت في بسكرة (1927) للطبيب العقبي، و"صدى الصحراء" لابن عابد "ثم جرائد جمعية العلماء المسلمين خلال الثلاثينات وهي "السنة"، "الشرعية"، "الصراط" و "البصائر" التي استمرت في الصدور بعد فترات انقطاع إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية، زيادة على صحف الاستعمار.

1 - الصحافة الجزائرية وجه للمقاومة ... وآخر للصراع :

إتفق الدارسون على أن التغيرات الجذرية في هيكل المجتمع الجزائري بدأت منذ مطلع القرن العشرين، وقد وصف س. ر. أجرون هذه الحالة

"بالاستفاقة"، في حين أن سعد الله وحريي تحدثا عن "النهضة"، أما عبد القادر جغلول قال أنها "الهيكلة المعادة للمجتمع"، أما دي بارمي : فقال ما حدث للجزائر مع بداية العشرينات ما هو إلا "اندفاع وطني والاتجاه نحو الثورة السياسية والإصلاح الديني والأخلاقي"³ الأكيد هو أن كل الاتجاهات السياسية والاجتماعية التي نشطت سيطرت على الحياة الجزائرية إلى اندلاع ثورة نوفمبر كانت تتفاعل خلال العشرينات.

هذه النهضة اعتمدت في تعابيرها على الضغط السياسي والإبداع الثقافي وإنشاء النوادي والجمعيات والأحزاب والصحافة الوطنية، بحكم أن النخبة المثقفة الجزائرية كانت تعتقد أن فرنسا لن تنهزم إلا بوسائل الحديثة التي تعتمد عليها هي نفسها.

خلال هذه المرحلة من تاريخ الجزائر ظهرت أحزاب سياسية ببرامج سياسية مختلفة ومتناقضة وبتصورات وآراء متباينة ويعتبر الكثير من المؤرخين الجزائريين أن من أهم إفرازات إصلاح سنة 1919 انقسام النخبة الجزائرية على نفسها بسبب تناقض موقفهم من قضية الاندماج، فالبعض يرى بان انضمام الجزائريين إلى فرنسا هو الحل الأمثل معتبرين أن الاندماج هو وسيلة للمساواة، في حين كانت ترى الفئة الأخرى أن الاحتفاظ بالجزائر كيانا منفصلا عن فرنسا هو الذي يجب أن يحدث كضمان للجزائريين وقد برزت مؤشرات هذا الانقسام بوضوح في الانتخابات البلدية للعاصمة في ديسمبر 1919 التي أجريت كنتيجة للإصلاحات الجديدة التي أعلنتها فرنسا عقب قانون 1919 والجدير بالذكر أن نقطة الاختلاف الكبرى والجوهرية الموجودة بين المترشحين ابن التهامي والأمير خالد تعلقت بقضية الدين، إذ عبّر ابن التهامي عن رأيه الاتكي نحو الدين بخصوص مسألة الاندماج، في حين أن الأمير خالد نادى بالمساواة في إطار الأحوال الشخصية للجزائريين كمسلمين، مما أسفر عن فوز هذا الأخير بـ 940 صوتا، مقابل هزيمة ابن التهامي بـ 340 صوتا فقط⁴.

أبدت الأحزاب السياسية استنكارها الكبير لقانون 1919 الذي اشترط على الجزائريين التخلي على أحوالهم الشخصية الإسلامية قبل أن يسمح لهم الحصول على الجنسية الفرنسية، كل هذه الأجواء انعكست بشكل مباشر على مستوى الصحافة الوطنية التي لاقت دعما كبيرا من طرف الأحزاب السياسية بعد اختفائها بسبب الحرب العالمية الأولى.

المعلوم أن معظم الأحزاب السياسية كانت قد أنشئت خلال فترة العشرينات " عهد النهضة " صحفا خاصة بها والتي عكست اتجاهها السياسي والثقافي ولا ننكر بأنه كان لهذه الصحف دورا بارزا في معركة التحرر الفكري رغم التعطيل الذي تعرضت له جراء القمع والاضطهاد التي لاقت على يد الاستعمار بالإضافة إلى المراقبة النظامية للاستعمار الذي امتدت إلى حد منع أو حجز الصحف التي اعتبرتها " خطرا على أمن البلاد " إذ لم يتم تطبيق هذا الإجراء فقط على الصحف الصادرة بالجزائر مثل صحف جمعية العلماء المسلمين وغيرها بل حتى على الصحف التي كانت تصدر في بلاد المغرب لإثارتها الفوضى على حد تعبيرهم (...) مثلما حدث بالنسبة لجريدة " الإقدام " التي كانت تصدر بكل من تونس و المغرب الأمر الذي اضطر النخب الجزائرية إلى وضع حرية الصحافة ضمن مطالبهم الأساسية في المؤتمر الأول لشمال أفريقيا المنعقد في باريس يوم 07 ديسمبر 1924.

ولعل أكثر هذه الصحف تأثيرا حسب سعد الله واحداً، "الإقدام" للأمرير خالد، "الجزائر" لعمر راسم "الفاروق" لعمر بن قدور" و "المنتقد"، "الشهاب" لجمعية العلماء المسلمين و كلها كانت تصدر باللغة العربية أو الفرنسية أو بهما معا.

ساهم الانتعاش الثقافي، والمطالب السياسية للأحزاب في إثراء قاموس المصطلحات والتعبير في الصحافة الوطنية مثل استعمالها لتعابير كالحقوق السياسية - المساواة - الوطن - التقدم - العدالة - التراث الإسلامي - اللغة

القومية...، مما ساهم إلى تجاوب المجتمع أو حدوث "الهيجان الاجتماعي" على حد تعبير سعد الله⁵ الذي حركته الإجراءات التعسفية و قانون التجنيد الإجباري. إلى جانب الصحافة الوطنية عرفت الساحة الإعلامية المكتوبة خلال هذه الفترة تسرب مجلات وجرائد عربية إلى الجزائر قادمة من بعض الأقطار العربية، لاسيما صحف

الحركة الإصلاحية المشرقية وفي هذا الصدد ذكر بن شنب: "...فكانت الصحف والمجلات تأتيهم مباشرة من مصر وتصل إليهم عن طريق غير مباشر أو بين حقائق الحجاج عند رجوعهم من البلاد المقدسة وكان كل عدد من تلك النشرات يزيدهم شجاعة وثقة وإيماناً بمستقبلهم العربي الإسلامي"⁶

وتعتبر صحيفة "المنار" الرشيد رضا أكثر الصحف الوافدة تأثيراً، فعن طريقه تم التعرف على آراء المصلح المصري محمد عبدو، مما ساعد بشكل كبير في تكون وتشكل النخبة الإعلامية الرائدة - الأولى - بالجزائر أمثال عبد القادر بجاوي، عبد الحليم بن سماية محمد بن مصطفى، خوجة وغيرهم⁷.

كل هذه العوامل المؤثرة انعكست على مجال الصحافة فأصبحت تعبر عن اتجاهات إيديولوجية واضحة كما أصبحت تستند إلى فلسفات سياسية واجتماعية متبلورة وأصبحت تمثل مستوى متطوراً من الناحية الصحفية: الطباعة - الإخراج - الأسلوب وثقافة المحررين مستفيدة من التطورات العالمية التي حدثت في مجال الفن الصحفي، كما تميز بقلّة عددها الذي أصبح أكثر تأثيراً من ناحية الصحف⁸.

2-1 وجه المقاومة في الصحافة خلال الاحتلال :

استعملت النخب الجزائرية صحفها للهجوم على الإدارة الفرنسية وتعتبر قضية التجنيد العسكري الإجباري بالنسبة للجزائريين واحدة من القضايا التي أتاحَت للصحافة الجزائرية فرصة ذهبية للهجوم على الإدارة الفرنسية، فقد أثارت هذه القضية مناقشات حادة في المجلس الوطني الفرنسي ووسط الرأي العام الفرنسي من 1906 إلى 1912 ولذلك وجدت الصحف الوطنية ثغرة ضعف في

الحكم الفرنسي ووجهت حملة عنيفة ضده وأثناء هذه الفترة قال أحد الملاحظين بان الجزائريين كانوا يشوشون بكلمتي "الحقوق" و"التقدم"⁹.

تضمنت الصحف آنذاك استنكار النخب الجزائرية الكبير لقانون 1919 الذي اشترط على الجزائريين التخلي على أحوالهم الشخصية الإسلامية قبل أن يسمح لهم بالحصول على الجنسية الفرنسية وحسب سعد الله فإن هذا القانون أبقى على قانون الأهالي وغير من الإجراءات الاستثنائية، زيادة على منعه للجزائريين من التمثيل النيابي وحول هذا الموضوع كتبت جريدة "الإقدام" في افتتاحية العدد الصادر في 7 مارس 1919 قائلة: "...رغم أن الإصلاحات قد خطت خطوة أمامية بخصوص المشكل الأهلي، فإن العمل الذي وضعت خطوطه العريضة قبل الحرب ما زال باقيا على حاله .."

وكتب بجريدة "الأخبار" الأمير خالد مقالا عبر فيه عن رفضه لمبدأ التجنيس بالطريقة والشروط الواردة في قانون 1919 لإصلاحات فرنسا عارضتها بعض النخب الجزائرية وهو ما عكسته وسائل الضغط السياسية التي استعملتها زيادة على الضجة الإعلامية التي باشرتها ولم تكف الأحزاب من خلال الصحافة المطالبة بتحقيق فرنسا لمطالبها "الشرعية" إذ ورد في مجلة "الشهاب" الصادرة في جويلية 1936 مطلب جمعية العلماء المتعلق "بترسيم اللغة العربية وتعليمها في المدارس الحرة وتأسيس كلية لعلوم الدين، وتنظيم الإسلامي و تسليم المساجد مع أوقافها للمسلمين ...".

نشرت مجلة "المغرب" في سبتمبر 1918 مذكرة أرسلت نسخة منها إلى مؤتمر السلام "الذي انعقد في باريس في تلك السنة مطالبا متعلقة" بتقرير مصير إفريقيا الشمالية¹⁰ ولم تخف بعض الصحف التابعة للجماعة الاندماجية امتعاضها من أن إصلاحات فرنسا لم تكن في مستوى التطلعات والتضحيات التي بذلها أصحابها ولا حتى في مستوى الأمل الذي وضعوه في فرنسا...¹¹.

رغم الضغوطات والتهديدات المستمرة الممارسة من قبل الاستعمار، شكلت العديد من الصحف الجزائرية تنصدها صحف جمعية العلماء كالشهاب والبصائر واحدة من أقوى أسلحة المقاومة كما ساهمت بشكل فعال في الحفاظ على اللغة العربية وكانت بذلك الغذاء الثقافي الوحيد الذي يتغذى به الجزائريون وعلى هذا الأساس يعترف للصحافة على أنها كانت مكملًا أساسيًا لنشاط الحركات الإصلاحية - كما سبق تفصيله - ومنبرا لنشر الوعي الوطني القومي وعن فضل الصحافة العربية ودورها يتحدث عبد الحميد ابن باديس فيقول: "... والشعور بهذا الواجب يعزى الفضل فيه إلى ما قام به نبغاء الجزائر ودهاؤها من الدعوة والإرشاد فظلوا يكافحون عن اللغة والدين... وإلى ما قامت به الصحافة الجزائرية الفتية من ضروب التعضيد والتأييد... فتوصلت بعد جهاد طويل إلى غرس ملكة الذوق العربي في النفوس لتذوق العموم من ثمة حلاوة اللغة العربية وطلاوة أساليبها الرشيقة"¹²¹.

وكان محررو الصحف على درجة عالية من الشجاعة الأدبية والحماسة ونستعرض فيما يلي عينة لما كان ينشر في بعض الصحف لبرهنة على دورها في المقاومة والتوعية والحفاظ على اللغة العربية.

جاء أيضا على لسان ابن باديس في جريدة "البصائر" العدد الصادر في 22 جوان 1939 " اللغة العربية الرابط بين ماضي الجزائر المجيد وحاضرها الأغنى ومستقبلها السعيد وهي لغة الدين والجنسية والقومية واللغة الوطنية المغروسة".

أما الشيخ البشير الإبراهيمي فقد قال: " إن لغة العرب قطعة من وجود العرب، وميزة من مميزات العرب ورمز لعصورتهم الطافحة بالمجد والعلم والبطولة والسيادة... والأمة الجزائرية من أوفى الفروع العربية لهذه اللغة وأكثر برا بها وتمجيدها واعتزازا..."¹³¹.

وذكر عمر بن قنور في جريدة "المصباح" هذه لغتنا العربية الشريفة التي أنزل بها الكتاب لغة القرآن والدين الإسلامي، قد أصبحت منذ عهد مديد بعد إشراف أنوارها على الخليقة كسفينة في لجة البحر تهددها العواصف..."¹⁴¹.

أما أحمد توفيق المدني فقد جاء في مقال له معنون بـ (بين الموت والحياة) "المسألة الموضوعية أمامنا الآن هي مسألة المحافظة على الإسلام والعربية وهذه المحافظة هي البرنامج الوحيد الذي يجب أن يكون برنامج الجزائر.."¹⁵¹.

على أساس ما ذكر من أمثلة نستخلص بأنه كان لصحافة جمعية العلماء المسلمين دورا فعالا في المحافظة والمقاومة والتوعية من خلال تركيزها على قضايا الإسلام واللغة العربية وربط الإصلاحيون إلى جانب بعض المثقفين من خلال مقالاتهم مصير الجزائريين بوجود النظم الاجتماعية المهمة والتي هي الدين واللغة والتصريح الوارد في المقال الأخير يدل دلالة قوية على أن سياسة الفرنسة التي إنتهجتها الإدارة الاستعمارية منذ بداية الاحتلال لم تحقق النجاح المطلوب في استئصال مقومات الشخصية الجزائرية في نفوس غالبية أفراد المجتمع الجزائري غير أنها لم تكن لتتم بتلك الكيفية دون أن تترك أثارها الواضحة في فرنسة الواقع الاجتماعي وإضعاف اللغة العربية لدى الجزائريين.

ولعل العنوان الذي اختاره أحمد توفيق المدني لمقاله يعطينا مؤشرا قويا على أن المجتمع الجزائري ما يزال حيا بمقومات شخصية لم ينل منها بعد الاستعمار ولكنه مهدد بالموت بين الفقر والجهل والفرنسة والتنصير وأن المقاومة الشديدة التي ظل يديها لسياسة الفرنسة والتنصير لا تعني الانتصار عليها أكثر مما تعني الدفاع ضدها، كما أن المحافظة على اللغة العربية لا تعني بقاءها مزدهرة ومتشعة في البلاد مثلما كانت قبل الاحتلال أكثر مما تعني بقاءها (بين الموت والحياة) بعد صراع غير متكافئ دام قرنا وثلث قرن.

ويبقى أن نشير أنه أمام ضغوطات الاستعمار إعتد أعضاء بعض الصحف الوطنية على استراتيجيات تهدف إلى تهدئة الأوضاع إلى حين من خلال تفاديها للتهكم على الأشخاص ونشر فضائهم من خلال نقل الأخبار بأكثر تحري وتحميل مسؤولية ما ينشر مع إلقاء استعمال الأسماء المجهولة.

ما يمكن أن نشير إليه في الأخير هو أن الصحافة الوطنية خلال حقبة الاستعمار ساهمت بقدر كبير في تفعيل وتنشيط الساحتين الثقافية والسياسية للمجتمع الجزائري عن طريق ميكانيزماتها في التأثير وخلق التبعية من خلال تشكيل ضمير جمعي بالمفهوم الدوركايي وكانت بهذا مجالا مكشوفاً عكس التمايزات والتمييز بين مختلف الجماعات الاجتماعية إذ طغى من خلالها على السطح تصورات وتقييمات متباينة حول المشروع الاجتماعي والحضاري العام للجزائر المحتلة وهو ما توضح من خلال محتوى عناوين الصحف ذاتها ومحتوياتها الذي ضمت مقاومة واضحة للاستعمار وسياسته الاحتوائية الاضطهادية، فهل تضمنت الصحف أيضاً نوعاً من التناقض والصراع في الأفكار حول مكونات الهوية بين هذه النخب...؟

2- مسألة "الهوية" تمزق الخطاب الإعلامي وانقسام النخبة في عهد

الاستعمار:

المعروف عن الصحف الجزائرية أنها لعبت دوراً أساسياً في إيقاظ الجزائريين وتوعيتهم من مخاطر السياسة الفرنسية، كما كانت الصحف مكاناً للصراع الدائر بين النخب السياسية الجزائرية التي لم تكن متجانسة ولا متكافئة من ناحية القيم والمعايير الثقافية والإيديولوجية والسياسية، مما جعل كل صحيفة تقدم تصوراتها وإدراكاتها لمختلف الظواهر المحيطة بطريقة مختلفة ومتناقضة، " فمند بداية الاتصال المكتوب كانت الصحافة دائماً فضاء للصراع الذي يجب أن يتسبب إلى الأطر السياسية والإيديولوجية والثقافية"¹⁶¹.

بدأت بوادر الانقسام على مستوى الصحافة الجزائرية في عهد الاستعمار تظهر إزاء بعض القضايا كالتجنيد والاندماج.. وأصبحت الهوية تتوسع وتتجذر بين النخب الجزائرية التي توزعت على مجموعتين كبيرتين تتسم كل واحدة منهما بالانسجام الثقافي والإيديولوجي، المجموعة الإعلامية الأولى بنت مشروعها الاجتماعي والثقافي على أساس الاندماج في فرنسا، اعتبرته المشروع والحل الذي

يحفظ ويصون للجزائريين كرامتهم من خلال أحداث نوع من المساواة مع الفرنسيين وتجدر الإشارة إلى أن معظم المتتمين إلى هذه الجماعة تكونوا تكويننا فرنسا واشتغلوا في التحرير بالصحف الفرنسية ومن بين هذه النخب نذكر، الحفناوي، شرشالي، بريهمات، بدوي¹⁷ وقد لا نشك حينما نقول بأن المتتمين إلى هذه المجموعة قد أبدوا ميولهم وتبنيهم للأفكار الحداثية، بحكم احتكاكهم الكبير بالغرب أما المجموعة الثانية فأعلنت تمسكها بفكرة الاحتفاظ بالجزائر كيانا منفصلا عن فرنسا مؤكدة إن المشروع الأمثل للجزائريين هو محافظتهم على وطنهم، قيمهم ومقوماتهم الوطنية رافضة كل الرفض الإنصهار في الغرب وأكدت هذه الجماعة الإعلامية بأنها لا تقبل بديلا أو منافسا للثقافة العربية الإسلامية والتي هي ثقافة كل الجزائريين عملت وناضلت هاتين الجماعتين المتبايتين في المشروع والرؤى من خلال الصحف التي تم إنشاؤها من أجل كسب تأييد الرأي العام وممارسة الهيمنة " المعنوية " قصد تعبئة أكبر عدد من الجزائريين، غير أن ما ميز هذه الممارسة هو محاولة كل طرف إقصاء الآخر ومحوه من الخارطة و"استئصاله" وهذا الإقصاء يأخذ شكل طرد الآخر من المجموعة الوطنية.

ويمكن إبراز مؤشرات الانقسام الذي ميز الصحافة والنخب الجزائرية القائمة عليها - موزعين على مجموعتين كبيرتين متناقضتين - من خلال الوقوف عند 3 مراحل أساسية ميزت الصحافة الجزائرية خلال فترة الوجود الاستعماري:

- المرحلة الأولى: بداية الصحافة .. بداية بوادر الأزمة

عرفت هذه المرحلة التي امتدت من 1900 إلى 1924 ميلاد أولى الصحف الجزائرية التي أصبحت مجالا مهما وجديدا طرحت من خلاله أفكار وآراء وتصورات النخب الجزائرية المثقفة إزاء بعض القضايا الحساسة، فقد ساهم " رواد " الصحافة الجزائرية في تحريك وتنشيط الحقل الإعلامي من خلال مساهماتهم الصحفية المتنوعة وحسب علي مراد فإن أكثر أعضاء النخبة الجزائرية

من ذوي اللسانين قد اشتغلوا في تحرير الجريدتين الفرنسيتين "الأخبار" و "المبشر" والهدف من ذلك هو تبليغ الجزائريين سياسة فرنسا الرسمية...¹⁸.

لم تتوضح في بداية هذه المرحلة معالم الانقسام الذي ميز النخب الإعلامية بالشكل الكافي، لكن سرعان ما بدأت مؤشرات التعارض والتناقض في الرؤى والتوجهات تطفو على السطح والتي أخذت اتجاهاين كبيرين، الأول يضم جماعة التقليديين المرتبطين بالطبقة القديمة، أما الثاني فيتكون من النخب الجديدة ومعظمهم كانوا يريدون استعمال الصحافة كوسيلة للتعبير عن مطالبهم الوطنية¹⁹ ونستعرض فيما يلي أهم أسماء الصحفيين والجرائد التي ميزت المرحلة الأولى.

*** الصحافة المزدوجة اللغة والنخب الحداثية :**

اقترن ظهور بعض الصحف المزدوجة اللغة بأسماء بعض الصحفيين (الجيل الأول من الصحفيين حسب زهير احداون) الذين تقاسموا مع الاستعمار الكثير من القيم الثقافية كاللغة الفكر، الثقافة والإعلام بسبب احتكاكهم الكبير بالفرنسيين (أثناء ممارستهم للصحافة بالجرائد الفرنسية) ومن بين هؤلاء نذكر أحمد بدوي (1820 - 1880) الذي يعد أولى الأقلام الجزائرية المزدوجة اللغة التي اشتغلت في التحرير على مستوى الجرائد الفرنسية بحيث عمل بالقسم العربي لجريدة "المبشر" التي كان يديرها الجنرال "دوماس" وتبين موقف بدوي ذا الميول للثقافة والحضارة الغربية من خلال مقالاته العلمية والتاريخية التي تميزت بالدقة في اللفظ والغزارة في المعنى.

وبخصوص شخصية صادق دندن (1880 - 1838) فقد عرفت بحملها لأفكار عصرية ترمي إلى تحرير الجزائريين والتحقيق لهم المساواة مع الفرنسيين ونشير إلى أن دندن كان يكتب بالفرنسية في جريدة "الإسلام" (1932) التي عرفت بتأثيرها الكبير.²⁰

كما يعتبر الأمير خالد (1875 - 1937) واحد من أفراد الجماعة التي حملت أفكار عصرية (تكون في الشام ثم في فرنسا) والمعروف عنه أنه أول من دعا

إلى الاندماج ورفض التجنيس مما أدى إلى نشوب خلاف بينه وبين أصحابه وهذا ما بدا جليا في مقالاته المنشورة في الجرائد التي كانت تصدر في 1912 والجريدة التي أشرف عليها وهي "الإقدام".

كما عرف العربي فخار مؤسس جريدة "المصباح" بإسهامه الكبير في خلق نوع من التفاهم بين الفرنسيين والجزائريين وزيادة على أسماء المذكورة يضيف علي مراد كل من الحفاوي، شرشالي وبريهمات ... الذين يعتبرهم أعضاء النخبة الجزائرية المشهود لهم بأفكارهم الحداثية.

من أهم الصحف التي أشرفت عليها النخبة الحداثية نذكر أيضا "المصباح" (1904-1905) الناطقة باللغتين والتي كان هدفها الأساسي إحداث وفاق بين الجزائريين والفرنسيين، زيادة على جريدة "الإسلام" (1912-1914) التي صدرت بالعاصمة وترأس تحريرها العربي دندن مع عز الدين القلال واستمرت تصدر باللغتين العربية والفرنسية ثم باللغة الفرنسية لوحدها حتى 1914 كما عرف عن جريدة "الفاروق" (1913-1915) ثم من (1920-1921) التي ترأس تحريرها عمر بن قدور بعدم مقاومتها للجنسية الفرنسية أما جريدة "الإقدام" (1919-1923) التي كانت استمرار لصحيفة "الإسلام" التي رحبت كثيرا بسياسة إدماج الجزائريين في الجنسية الفرنسية مع الحفاظ على شخصيتهم الإسلامية وقد دعمتها في الموقف جريدة "الصدى" (1920-1921).

أما كل من جرائد "المستقبل الجزائري" (1920-1921) و"استقبال الجزائر" (1921-1922)، فقد عرفت بمحاربتها الشديدة لسياسة الأمير خالد مع الإشارة أنها كانت تحظى بتأييد السلطات الاستعمارية²¹.

* الصحافة المعربة والمتقفون المحافظون :

شهدت الصحافة المعربة انتشارا مكثفا في هذه المرحلة، رغم عدم انتظام صدورها بسبب الصعوبات المالية من جهة وتعسف سلطات الاحتلال من جهة

أخرى التي كانت تهددها دائما بالتوقف ولعل من أبرز الأسماء التي أشرفت على الصحف ذات التوجه العربي الإسلامي والتي عرفت بدفاعها الواضح عن هوية الجزائريين نذكر - عبد القادر مجاوي الذي طرح القضايا المهمة بالنسبة للمسلمين على مستوى جريدة "المغرب"، نفس الموقف المدافع عن العروبة والإسلام تبناه محمود كحول بن دالي (1870-1936)، المكون تكوينا عربيا إسلاميا بمدينة قسنطينة ومؤسس جريدة "كوكب إفريقيا" في 1907 وهي أول أسبوعية بالعربية.

المثقفون العربون الذين نشطوا على مستوى الصحف خلال المرحلة الأولى من التواجد الاستعماري عرفوا بدفاعهم المستميت عن مبادئ الهوية والقومية الجزائرية التي لا تخرج عن النطاق العربي الإسلامي رغم محاولات الغرب والموالون لهم لإحداث الانسلاخ...، هذا ما أعلن عنه بشكل صريح عبر الصحف الصادرة آنذاك والتي نذكر منها : جريدة "المغرب" (1908-1913) الصادرة باللغة العربية والمعروفة باتجاهها الإصلاحية الإسلامي، رغم أن صاحبها فرنسي الأصل "بير فونتانه" إلا أنها عرفت بدفاعها عن القضية الجزائرية، هذه الجريدة التي كانت تصدر مرتين في الأسبوع ضمت العديد من المثقفين الجزائريين يترأسهم عبد القادر مجاوي ونشير أن هذه الجريدة قد استمرت عقدا كاملا، أي حتى 1913 وذكر علي مراد أن محمد عبده المصلح المصري قال عنها : "...رغم أخطائها كانت مفيدة للجزائريين الذين جردوا من الصحف العربية الوطنية"²²¹.

كما أظهرت جريدة "الإحياء" (1907-1907) (مجلة عربية شهرية) مواقف جديرة بالاهتمام حول الإسلام واللغة العربية، نفس الاتجاه أخذته جريدة "ذو الفقار" (1913-1914) التي تبنت سياسة محمد عبده الإصلاحية ودعت إلى الاشتراكية الإسلامية ووقفت ضد التجنيد العسكري.

يمكن ربط الأسباب التي تفسر ظهور صحف هذه المرحلة بمجملتها من العوامل الاجتماعية والأمنية المخيمة آنذاك، فالجتمع الجزائري في تلك الفترة علاوة على مناخ التوتر الذي سبق نشوب الحرب العالمية الأولى كان يعيش ظرفا

داخليا خاصا ترك آثاره الواضحة على الأوضاع الفكرية للجزائريين مثل الاضطراب الذي ساد نتيجة صدور قانون التجنيد الإجباري، زيادة على زيارة محمد عبدو المصلح المصري للجزائر عام 1903 والذي ترك أثرا هو الآخر على مستوى اتجاه الإصلاح الجزائري، لم تستند صحف هذه المرحلة إلى تنظيمات سياسية واجتماعية، بل كانت في معظمها مشروعات فردية²³ عكست تصورات المثقفين القائمين عليها التي لم تكن منسجمة كثيرا بحيث شهدت بعض المشاحنات.

- المرحلة الثانية : العروبيون والحداثيون ورحلة البحث عن الذات

قام بعض المثقفين الجزائريين من خريجي المدرسة الفرنسية ومن تلقوا تعليمًا عربيًا بالزيتونة والأزهر بمسؤولية إنشاء وتطوير الصحافة الجزائرية والتي على عكس المرحلة الأولى اتسمت باستنادها إلى تنظيمات سياسية واجتماعية امتدت هذه المرحلة بين عام 1925 و1953، هذا ما ترجم من خلال انضمام بعض المثقفين إلى تنظيمات حركات وأحزاب وجمعيات والتي تميزت كل واحدة منها بالانسجام الثقافي والإيديولوجي وكمثال على ذلك حركة أنصار البيان وحزب أنصار الحريات الديمقراطية والحزب الشيوعي بالإضافة إلى نشاط بعض الزوايا في الصحراء... تنوعت الاتجاهات الاجتماعية والأساليب الدعائية لمختلف هذه التيارات السياسية وهو ما جعلها غير متجانسة ومتناقضة في تصوراتها وأهدافها السياسية والاجتماعية وهو ما انعكس بشكل واضح على مستوى الصحف إلى درجة الصراع.

عرفت هذه الفترة صراعا فكريا حادا بين الفرنسيين وبعض الجزائريين الذين أيدوهم في سياسة الإدماج وبين الإصلاحيين وبعض الوطنيين الذين كانوا يخوضون المعركة ضد السياسة الفرنسية بجميع أبعادها وتجلت أشكال الصراع الإيديولوجي هذا في مختلف الأطروحات الصحفية التي طرحها هؤلاء المثقفين، فجاء مثلا في جريدة " الأمة " الناطقة باسم حزب "نجم شمال إفريقيا " عام

1934 : " .. إننا نقول بصراحة أننا وطنيون.." وبنفس الكيفية قدمت بعض صحف جمعية العلماء نفسها فأعلنت في أكثر من مرة عن مشروعها الهادف إلى الإصلاح وفي إحدى مقالاتهم بمجلة " الشهاب " قال الإصلاحيون "هدف الجمعية هو إصلاح الشعب الجزائري العربي من الوجهة الدينية والوطنية والأدبية والعلمية"²⁴¹.

وتدعيما منها لرسالة جمعية العلماء (التي صرح علماءها أن الإسلام سيصبح عالميا وأنه ليس في حاجة إلى دعاية) ذكرت جريدة "النجاح"²⁵¹، " أنه بعد مائة سنة، سيصبح العالم كله مسلما لأن الإسلام لا يعارض أي تقدم..."²⁶¹ وفي رسائل توعية ووعظ وجهت إلى الجزائريين وبعض الفئات جاء في "الشهاب" شهر نوفمبر 1935 : "عليكم أن تلتفوا حول أمتكم فتتشكلونها مما هي فيه بما عندكم وبما اكتسبتم من خبرة، محافظين لها على مقوماتها سائرين بها في موكب المدنية .."، نشر نجم شمال إفريقيا بيانا في جريدة "الإقدام" شهر جوان 28 بعنوان : "من أجل استقلال إفريقيا الشمالية " وفيه نادى مناضلوه الجزائريين قائلين : " أعلنوا حقوقكم " وحرصوهم قائلين : " .. أعدوا أنفسكم للاحتفال باحتلال بلادكم على طريقتكم الخاصة .. بتنظيم حركة واسعة ضد الإمبريالية .."²⁷¹، أما جريدة "المغرب " في عدديها الصادرين في 2-3 جوان 1930 فقد وجهت لومها إلى النخب الجزائرية التي لم تحرك ساكنا ونادتهم إلى جانب الشعب الجزائري لإظهار للعالم أنهم قادرون على تكوين كتلة من المناضلين للدفاع عن وجود الأمة²⁸.

وزع الانشقاق الكبير الذي عاشته هذه المرحلة النخب المثقفة الجزائرية والصحافة الجزائرية إلى مجموعتين كبيرتين مختلفتين :

الحداثيون والخطاب الإعلامي الموالي للغرب:

ضم هذا الاتجاه أحزاب وحركات مثل اتحاد الجمهوريين المسلمين وبعض أعضاء الطرق الصوفية الموالين لسياسة الإدماج وأحزاب أخرى ظهرت في آخر المرحلة لعل أهمها حزب فرحات عباس المعروف بمواقفه وسياسته وأفكاره الحداثية،

فهذه الأطراف وإن اختلفت في بعض أهدافها الإستراتيجية إلا أنها تبقى تتمتع بميزة مشتركة وهي تأثرها بالأفكار الحداثية الغربية وتأييدها لبعض السياسات المقترحة من قبل فرنسا تنصدها سياسة الاندماج غير المشروط، ويمكن اعتبار الحزب التي قادها فرحات عباس ومجموعة الجرائد التي أصدرها أهم من مثل هذه المجموعة الحداثية ويكفي أن نعترف بأن فرحات عباس رفض في بداية مشواره فكرة الأمة الجزائرية وطالب بالتحال الاندماج في الأمة الفرنسية.

ومن أهم الصحف التي مثلت هذه المجموعة نذكر " التقدم " (1931) التي عرفت بدفاعها عن سياسة الاندماج علما أن هذه الجريدة كانت موالية لاتحاد الجمهوريين المسلمين الفرنسيين، كما وقفت جريدة "صوت الأهالي" (1939) نفس موقف جريدة " التقدم " وكانت جريدة "الإخلاص" قبلها (1932) اللسان الحال للطرق الصوفية الصوفية من الجرائد الموالية لسياسة الاندماج كما عرفت بمحاملتها الدعائية ضد عبد الحميد ابن باديس وبالإضافة إلى ذلك حملت الجرائد الصادرة عن حركة أنصار البيان وهي : مجلة المساواة (1944 - 1945)، الجمهورية الجزائرية (1946) أفكار الحزب و دافعت عنها.

العروبيون والخطاب المدافع عن مقومات الأمة :

ضمت المجموعة الثانية أطرافا تجانست واتفقت في أفكارها الهادفة إلى المحافظة عن مقومات الأمة من لغة ودين وقيم... وأبرز من مثل هذه المجموعة جمعية العلماء المسلمين التي عرفت بمواقفها منذ إنشائها عام 1931، إذ لم يتوان أعضاء جمعية العلماء في الإفصاح عنها على مستوى الجرائد التي أنشأها والتي لاقت رواجاً كبيراً علماً أنها كانت قد تأثرت بما كان يرد في الصحف القادمة إلى الجزائر من المشرق لاسيما مصر وسوريا.

صحف جمعية العلماء المسلمين :

كانت الصحافة مظهراً آخراً لحملة العلماء من أجل تحقيق الأهداف الإصلاحية والمطالب السياسية معا ونشير إلى أن الجرائد التي تم إنشاؤها قبل ظهور جمعية العلماء المسلمين أي قبل 1931 لم تكن تعبر بشكل رسمي عن الجمعية

وعلمائها إذ كانت مفتوحة لكل مؤيدي فكرة الإصلاح، فقد أنشأ ابن باديس في 2 جويلية 1925 أسبوعية ناطقة بالعربية تحت اسم "المنتقد" (إسمها يشير إلى منهج ابن باديس النقدي) ولم يظهر من هذه الجريدة سوى 18 عددا قبل أن تمنعها السلطات الفرنسية من الصدور ومن بين من كتبوا فيها مبارك الميلي، الذي كتب في أولى أعدادها مقالا معنونا بـ: "العقل الجزائري في خطر"، زيادة على الطيب العقبي الذي نظم شعرا بعنوان: "إلى الدين الخالص" وفي أولى أعدادها أيضا أعلن ابن باديس أن مبدأه وغايته التي سيسير عليها هو نقد كل ما هو قائم من أوضاع سياسية واجتماعية ودينية²⁹ ونشير إلى أن المنتقد (1925) وجهت عنايتها إلى ثلاث مسائل وهي:

1- التربية الدينية.

2- مقاومة الانحرافات الدينية والاجتماعية.

3- العمل على إحياء القومية الاجتماعية.

وبعد منعها من الصدور أنشأ ابن باديس في نفس السنة مجلة "الشهاب"³⁰ التي استمرت على الطريق السياسي الذي أعلنه قبلها المنتقد ونشير إلى أن الشهاب اعتبرت من أكبر المجلات الجزائرية تأثيرا طيلة عقدين كاملين³¹.

ولم تكن الجريدة الرسمية للعلماء حتى بعد تأسيس الجمعية ولكنها كانت مساحة إعلامية مفتوحة لكل المهتمين بالإصلاح الاجتماعي في الجزائر ونذكر أن الطيب العقبي أحد أعضاء الجمعية انفرد هو الآخر بإنشاء جريدة "صدى الصحراء" فور عودته من الحجاز وذلك بمدينة بسكرة أين استقر عام 1926 وقد ساعده في ذلك الشاعر محمد العيد الخليفة ليؤسس بعدها في 1927 جريدة أخرى هي "الإصلاح" بنفس المدينة والمعروف عن العقبي أنه كثير التأثير بخطبه ومقالاته.

كما عرفت فترة الثلاثينات بروز جرائد أخرى لجمعية العلماء المسلمين بمضمون ونفس جديدين أهمها: "الشرعة"، "الصراط"، "السنة"، "البصائر" (1935-1939) التي استمرت في الصدور بعد فترات من الانقطاع إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية.

وكان قد أعلن ابن باديس بالعدد الصادر في ديسمبر 1930 بمجلة الشهاب "... أن مهمة العلماء ومن ينطوي تحت لوائهم من الطبقات الأخرى من أصعب

المهام، لا ينهض بها على أحسن منوال إلا المشهود له بسلامة الطوبى والمقدم إرضاء ضميره وريه وقبل كل شيء المتذرع بصفات أعلاها الحزم المقرون بالإنصاف والتسامح وسمو المهمة³²¹.

وفي تصريح آخر صدر له بنفس المجلة ذكر: "أن كل ما نأخذه من الشريعة المطهرة علما وعملا، فإننا نأخذه لنبلغ به ما نستطيع من كمال حياتنا الفردية والاجتماعية"³³¹.

إنعكس اتساع الهوة بين أفكار ومعتقدات المجموعتين الحداثية والعروبية على مضمون صحف تلك الفترة التي لم تخل من انتقادات النخب المثقفة لبعضها البعض إذ سجلت في السنوات الأولى لهذه المرحلة نقد الأمير خالد ورفضه لبعض السياسات على رأسها سياسة ابن التهامي وصرح في جريدته "الإقدام" قائلا: "فرنسا لن تصدر أبدا قرارا بالتجنيس الجماعي.. إذن لا نتحدثوا عن الاندماج..³⁴¹ وبالفعل لم تغير بعدها فرنسا قانونها الخاص بالتجنيد المشروط بالنسبة للجزائريين.

لم يبق زعماء نجم شمال إفريقيا مكتوفي الأيدي فقد أنشأوا عام 1930 جريدة "الأمة" التي أصبحت هي نفسها برنامجا ونقطة انطلاق حقيقة لهم حيث هاجموا من خلالها بعض المثقفين الجزائريين على رأسهم بن تهاامي ووصفوه وأتباعه بـ "الخونة والموالين المبيعين"، كما نظر علماء جمعية العلماء المسلمين إلى التجنيد على أنه خطة فرنسية لمحو الإسلام وعروبة الجزائر وكان بعض الجزائريين ممن قبلوا هذه السياسة محل مهاجمة وسخرية وشفقة أيضا من طرف العلماء وهذا ما اتضح من خلال مجلة "الشهاب" (لشهر أكتوبر 1930) أين هاجم العلماء هؤلاء بقولهم: "المتجنسون ناظرون إلى شكواهم السابقة على أنها دليل "الستار" الذي يخفي الحقيقة علينا"، بمعنى أن التجنيس لم يكن شيئا حميدا للجزائريين.

صدر حول نفس الموضوع بجريدة "المغرب" في 23 ديسمبر 1930 مقالا عنوانه "المسبّحون بحمد أوروبا" من خلاله تمت مهاجمة هذه الفئة من الجزائريين

(الفئة التي عرفت بدفاعها عن سياسة التجنيد)، كما أعلن القائمون على جريدة "المغرب" في ذات المقال افتخارهم بتراثهم الإسلامي.

هاجم من جهته ابن باديس في العديد من مقالاته بعض ممثلي إسلام الزوايا واتهمهم بتحريف الدين الإسلامي من خلال تركيزهم على الأولياء والمرابطين واستغلال الفقر الروحي والثقافي لجماهير الأرياف واعترف على إثرها أن مهمة إصلاح ما يقدم عليه هؤلاء ليست بالسهلة.. نفس النقد وجه إلى بعض المتصوفين (الذين فاق عددهم الألف متصوف) ممن يتطفلون على قوت الآخرين بدون عمل إذ اعتبرهم طاقات مهدرة ضائعة لا يرجى من ورائهم أي نفع قائلًا : " لا يستطيع أن ينفع الناس من أهمل أمر نفسه - عقلا وروحا وبدنا لازمة له ليكون ذا أثر نافع في الناس على منازلهم منه في القرب والبعد "³⁵ وفي مقال آخر بنفس المجلة حذر ابن باديس من خطر بعض المثقفين الجزائريين مفرنسي التكوين (الطبقة على حد تعبيره) والتي بات سعيها وراء الكسب المادي واضحا على حساب المبادئ القومية محذرا منها بقوله : "الخطر كل الخطر الذي يواجه الشعب الجزائري من هضم هذه الطبقة لحقوق لغة البلاد و لعل السبب في هذه النزعة المرتكزة على غير العقل والوعي الصحيح"³⁶.

ومن جهة أخرى لم تتردد الجماعات المناهضة لابن باديس عن مهاجمته والتهكم عليه، إذ ورد بجريدة "التقدم"³⁷ مقالا بعنوان "المتلون ابن باديس" كما تهجمت في عددها الصادر في 23 جويلية 1928 على مجلة "الشهاب" وابن باديس ومسؤول مطبعة بالعاصمة أحمد بوشمال.

لعل أكبر وأقوى مواجهة نستشهد بها - تدعيما لفرضيتنا (فرضية وجود توجهان ثقافيان كبيران بالجزائر) تلك التي كانت بين زعيمين هذه المرحلة وهما فرحات عباس وابن باديس، إذ لقي فرحات عباس - في بداية مشواره السياسي - مواجهة عنيفة حينما أعلن فكرته المشككة في وجود الأمة الجزائرية بالقول " ... لن أموت في سبيل الوطن الجزائري لان هذا الوطن لا وجود له ..فقد سألت عن

التاريخ وسألت عن الأحياء والأموات وزرت المقابر ولا أحد حدثني عنه... " ، فرد عليه ابن باديس يقول : "إن هذه الأمة الجزائرية الإسلامية ليست فرنسا ولا يمكن أن تكون فرنسا ..بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد .."⁽²⁾ (سبقت الإشارة إلى هذه المقولة)، ونشير على أن هذا الصراع تحول من ضمني وخفي في المرحلة الأولى إلى مباشر ومفصوح في المرحلة الثانية.

- أزمة الهوية في الحركة الوطنية :

سرعان ما بدأت بوادر الانفجار تطفو على السطح مع نهاية هذه المرحلة - أي قبيل اندلاع حرب التحرير بدليل تحول الصراع الدائر بين الطرفان (العلماني - العروبي) إلى درجة التآزم السياسي في الحركة الوطنية من حيث أنه : " ..يمثل نتائج الأزمة الداخلية التي حددت تاريخ الحركة من جهة الوطنيين العروبيين الإسلاميين المدعمين من طرف البلدان الغربية خاصة مصر ومن جهة أخرى الوطنيين الثوريين الديمقراطيين واللائكيين الذين نستطيع وصفهم بالجزائريين "

هذا الصراع الذي اخذ طابع تنافسي لمحاولة كسب الشرعية من خلال طرح مفاهيم في الجدل السياسي في حزب الشعب أهمها اللائكية غير أن قضية الأمازيغية قد احتلت بعدا هاما في ازدياد حدة الصراع بين الجماعتين وسبب ذلك يرجعه محمد حربي إلى أن " الاعتراف بالتنوع، احترام الاختلاف غريبان عن السياسة الثقافية للقادة الوطنيين سواء الناطقين بالبربرية أو المعربين "

أوحت الأزمة التي حدثت داخل صفوف حزب الشعب عام 49 بمأزق حول الهوية ومسألة الانتماء حيث اعتبر مصالي الحاج آنذاك أن وجود حركة وطنية موحدة لا يتفق مع التعددية الثقافية خاصة بظهور التيار الأمازيغي الذي أعاد طرح إشكالية الانتماء والهوية إلى الساحة حيث تفاقمت الأزمة عندما أكدت قيادة حزب جبهة التحرير أن مسلمات الهوية الجزائرية لا يمكن أن تكون خارج نطاق الإسلام واللغة العربية وإتهم أنصار التيار الأمازيغي بالجهوية والانفصالية والموالاة لفرنسا³⁸ ولكن وعي قادة الحركة الوطنية بسياسة التفريق التي كانت

تستهجها فرنسا أثناء الحرب التحريرية في تعميق الهوية بين التيارين، جعلهم يعملون على ضرورة جعل القضية قضية الجميع، مما ولد روحا وطنية قربت أكثر أولئك الذين حاولت فرنسا تفريقهم³⁹

وعلى هذا الأساس يتوضح بأنه تم إجماع على أن الهوية الوطنية للجزائر هي قبل كل شيء هوية مقاومة، وأمام الاستعمار لم يكن للحركة الوطنية من خيار فالوحدة الوطنية باتت مشروطة باللغة والدين وأن الحديث عن الهوية خارج هذا النطاق هو "خيانة" ومس بالوحدة الوطنية كما أن الحديث عن تعددية ثقافية أمر مرفوض وهو ما ورد في إحدى مذكرات الأمين العام لحزب الشعب "مصالي الحاج" "أن المناصرين للتيار البربري les berbéristes يطالبون بالهوية الأمازيغية برفضهم للبعدين العربي والإسلامي، فهم متأثرين ليس فقط بإيديولوجيات الاحتلال بل بالإيديولوجية الشيوعية لذلك فهم يهاجمون بعنف العروبة والإسلام"⁴⁰ وفي المقابل ظهرت كتابات الأمازيغيين التي لا تزكي الروابط والعلاقات بين الحركة الوطنية وجامعة الدول العربية ولقبتها بـ "سراب الشرق" كما وصفت العرب بالطغاة والرجعيون في حين اعتبرت الأمازيغيين هم الثوريون والديمقراطيون⁴¹.

إن أحداث 48-1949 التي شهدتها الحركة الوطنية في صفوف مناضلي حركة انتصار الحريات الديمقراطية تسمح لنا بالاعتراف بالضغط الذي مارسته هذه المسألة في المجال السياسي من حيث أن المطالبين بها أرادوا توضيحها وإدراجها في سياق المشروع السياسي وهذا يتم حسب حربي "إما تحت راية المطالبة الثقافية أو الدفاع عن مصالح المنطقة"⁴².

- المرحلة الثالثة : الهوية محل رهان إبان الثورة

لم يساهم كثيرا انضمام مختلف التيارات السياسية والفكرية إلى جبهة التحرير الوطني عقب اندلاع الثورة (1954 - 1962) في تليين مواقف هذه الأطراف المتنازعة أو من التخفيف من حدة المشاحنات بينها إزاء بعض

الإشكالات المتعلقة بالهوية الثقافية للجزائريين... فكانت هذه الفترة فترة رهانات بين تيارين وطنيين مختلفي الفلسفة.

تجلت أشكال الصراع الإيديولوجي بين التيار العربي المحافظ المشحون بأسلحة فكرية تدعو إلى الأصل والشعب ولكن في صورة رسمت انطلاقاً من المشرق في الكثير من الأحيان وبين التيار اللائكي المتأثر بالمنظومة الفكرية والقيم الثقافية الغربية، "... لكن التناقضات بين المبادئ الإسلامية من جهة والديمقراطية الاجتماعية والحريات الأساسية من جهة أخرى، ظهرت طيلة حرب التحرير الوطنية ثم من خلال الوعي بعد الاستقلال..."⁴³ ورغم المشاحنات التي دارت بين أعضاء الاتجاهين المتناقضين طيلة فترة الثورة إلا أن ظرف الثورة وممارسة قادة جبهة التحرير لسياسة الشد والمدين الأطراف المتنازعة ساهم نوعاً ما في إخماد بعض بؤر التوتر هذا ما عكسه جملة المواقف المتخذة بشأن قضايا كالإسلام، اللغة و التاريخ

...

صدر خلال هذه الفترة - فترة حرب التحرير - أعداد كثيرة من الصحف "صحف الثورة" والتي عملت بخاسة على نقل أخبار المعارك في وقت تميز بصدور بلاغات متناقضة ومتضاربة مستعملة أساليب دعائية مكثفة وهو ما ساعد على خلق نوع من البلبلة والتشويش وسط الرأي العام الجزائري وكانت معظم صحف هذه الفترة تحت إشراف الجيل الثالث من الصحفيين أمثال عبان رمضان، أحمد بومنجل الذين عرفتهم الجزائر بين 1934- فترة بروز "البيان الجزائري" وعام 1962 فترة الاستقلال، كما كانت معظم هذه الوسائل الإعلامية ناطقة باسم جيش جبهة التحرير الوطني الذي سعى إلى تنظيم الساحة الإعلامية من جديد، مع الإشارة أنه لم تحتف بعد من الساحة الإعلامية بعض صحف الفترة السابقة أهمها صحيفة البصائر لجمعية العلماء المسلمين وجريدة "الجزائر الحرة" التابعة لحزب أنصار الحريات الديمقراطية وصحافة الحزب الشيوعي...

إن فرز وتفاعل مرحلة الاستعمار وفق جدلية التكامل والتصادم هو الذي حدد لنا طبيعة الثقافة والعلاقات الاجتماعية المتناقضة بين النخب الإعلامية

الجزائرية ، فانقسام هذه الأخيرة (الذي انعكس على الصحافة) إلى اتجاهين كبيرين فرض نفسه كإحدى السمات الرئيسية المميزة للجزائر المستعمرة إذ وخلال كل مراحل الاستعمار لم يحدث شيئا آخر سوى إعادة هيكلة هذين الاتجاهين واتخاذهما لأشكال تحددها في كل مرة شروط المرحلة ومقتضياتها، عمل كل واحد من هذين الجماعتين المتعارضتين على إقصاء الآخر من خلال طرحهما لعدة إشكالات تتعلق بالهوية الثقافية، هذا الإقصاء الذي أخذ شكل طرد الآخر من المجموعة الوطنية، فالعصرانيون رموا بخصومهم في ظلمات التاريخ بعد أن اعتبروهم مجرد بقايا الماضي السحيق، أما العروبيون فظلوا يدفعون بأخصامهم إلى جغرافيا أخرى، كما لو كانوا يعتمدون اعتبارهم مجرد امتداد لمجتمع آخر هو المجتمع الفرنسي.

أحدث حضور ثقافتين متناقضتين خلال فترة الاحتلال انقسام ثقافي حاد وقطيعة على المستوى الفضاء الثقافي الجزائري ومن مظاهر هذا الانقسام انقسام النخبة الجزائرية على نفسها والتي توزعت على مجموعتين كبيرتين اتسمت كل واحدة منهما بالانسجام الثقافي والإيديولوجي وقد أنتجت هذه الظاهرة صراعا حول كسب الشرعية الثقافية والإيديولوجية في المجتمع، إذ رتبت كل مجموعة بعض المفاهيم ذات الدلالة الاجتماعية والثقافية وفق مميزاتها وغاياتها الخاصة.

لعبت الصحف خلال فترة الاستعمار دورا مهما في المعركة والصراع الدائرين بين النخب المثقفة، إذ تم استغلالها - من منطلق أنها وسيلة استراتيجية وتأثيرية- لكسب تأييد الرأي العام وممارسة الهيمنة " المعنوية " قصد تعبئة أكبر عدد من الجزائريين.

الصحف الجزائرية وطيلة فترة الاستعمار انقسمت على نفسها بين صحف معربة مدافعة عن مبادئ الأمة المتمثلة في اللغة العربية والدين الإسلامي والقومية وصحف مزدوجة اللغة الباحثة عن الحداثة والداعية إلى استعمال العقل

وكان يسعى كل اتجاه منهما إلى إقصاء الآخر وتهميشه من منطلق أنه يمثل ولوحده كل الحقيقة.

الهوامش

- 1- أبو القاسم سعد الله ، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، بداية الإحتلال مقدمة الطبعة الثانية، القاهرة، المنظمة العربية والثقافية والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية ، 1976، ص 5-6.
- 2- لتفاصيل أخرى حول هذا الموضوع طالع أطروحة دكتوراه لـ تومي أم الخير ، الخطاب الإعلامي و الازدواجية الثقافية بالجزائر، قسم علم الاجتماع كلية العلوم الاجتماعية ، جامعة وهران ، 2010 .
- 3- كانت العديد من النوادي والجمعيات تقوم بنشاطات متنوعة مثل تنظيم ملتقيات علمية، ثقافية واجتماعية والإسعافات والنشاط الكشفي، و أكثر أسماء هذه المراكز والجمعيات تدل على برنامجها مثل : التوفيقية (1908)، ودادية العلوم الجديدة، نادي التقدم، نادي الشباب الجزائري، جمعية الهلال، نادي الاتحاد والرشيديّة.
- 4- انظر للمراجع التالية :
- أبو قاسم سعد الله ، الحركة الوطنية الجزائرية 1900 -1930، الجزء الثاني، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، 1983.
- Djamel Guerid , L'exception Algérienne - la modernisation à l'épreuve de la société-, Alger, CASBAH, 2007.
- Abdekader Djeghloul , Eléments d'histoire culturelle algérienne, Alger, ENAL, 1984 .
- 5- لمعرفة أكثر تفاصيل حول هذه الانتخابات وبرنامج المرشحين طالع أبو قاسم سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية 1900-1930، الجزء الثاني، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، 1983.
- 6- أبو قاسم سعد الله ، الحركة الوطنية الجزائرية، 1900-1930، الجزء الثاني، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، 1983، ص من 50 - 55 .
- 7- مجلة كلية الأدب ، جامعة الجزائر ، العدد الاول ، السنة الأولى ، 1964، ص 41 .
- 8- شخصيات ستعرف عليها لاحقا.
- 9- Zahir Ihaddaden , La presse musulmane algérienne de 1830 à 1930, Alger, ENAL, 1986, pp 10-11 .

- 10- أبو القاسم سعد الله ، الحركة الوطنية الجزائرية 1900-1930، الجزء الثاني، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، 1983، ص142، عن الفخار، أبريل 1909، ص3.
- 11- مجلة المغرب ، سبتمبر - ديسمبر 1918 .
- 12- أبو القاسم سعد الله، مرجع سبق ذكره، ص 314.
- 13- مجلة الشهاب ، العدد 5 سبتمبر 1929.
- 14- ساطع الحصري ، حوليات الثقافة العربية، المجلد الثاني، دار الرياض للطبع والنشر، 1951، ص 568 - 569.
- 15- جريدة المصباح ، العدد 18 ، 30 - 09 - 1904.
- 16- جريدة الإصلاح ، العدد 13، 27-02-1930.
- 17- Lakhdar Idrouj , Pouvoir et idéologie de l'information, AUTHEUR, sans date, p 163 .
- 18 - Ali Merad , La Formation de la presse non musulmane en Algérie, 1919 - 1939, I.B.L.A XXVII, 1964 p 16
- 19- رغم صعوبة تحديد فترة الجيل الأول من الصحفيين الجزائريين فإنه ثمة مؤشرات تقول أنها بدأت قبل الحرب العالمية الأولى وبالضبط في عام 1876 ، إذ نشرت " الصدى " الباريسية مقالا لأحمد بدوي ونشرت له بعدها جريدة "المبشر" مقالا آخر.
- 20- Ali Merad , La formation de la presse musulmane en Algérie, 1919- 1939 I.B.L.A.XXVII, 1964, P16.
- 21- زهير احداث ، أعلام الصحافة الجزائرية الأجزاء الأربعة. (انظر قائمة المراجع) .
- 22 -Ali Merad , Idem, pp15-16.
- 23- بعض المعلومات حول هذه الجرائد أخذت من الكتب :
- أبو القاسم سعد الله ، الحركة الوطنية الجزائرية، 1900-1930، الجزء الثاني، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية 1983.
- 24 - El Mannar , n° 14 Mai 1930 , cité par Ali Merad , La formation de la presse musulmane en Algérie (1919- 1939), I.L.A.XXVII, 1964, p15.
- 25- عواطف عبد الرحمن ، الصحافة العربية في الجزائر - دراسة تحليلية لصحافة الثورة الجزائرية 1954- 1962، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985، ص 33 .
- 26- الشهاب ، نوفمبر 1934.
- 27- كانت "النجاح" إلى ذلك الوقت إلى صف الجمعية قبل أن تختار طريقا مغايرا فيما بعد.
- 28- النجاح ، عدد 27 ماي 1932.
- 29- الإقدام ، جوان 1928
- 30- المغرب ، العدد 2 و3 جوان 1930.

- 31-المستقد ، العدد الأول، جويلية 1925، ص1.
- 32-الشهاب ، اسم يشعر بطابعه الديني الذي يحمل معاني النور ويوحى بالطموح.
- 33 - Zahir Ihaddaden , La presse musulmane algérienne de 1830 à 1930, Alger, ENAL, 1986, p40
- 34- مجلة الشهاب ، ديسمبر 1930.
- 35-الشهاب ، أوت 1939 .
- 36- الإقدام ، جانفي 1931.
- 37-مجلة الشهاب ، جويلية 1936.
- 38-مجلة الشهاب ، مقال معنون بـ " مستقبل اللغة العربية في الجزائر، صدر في 2- 12 - 1929.
- 39-التقدم ، العدد 24 مارس 1928.
- 40- تصريح فرحات عباس في يوم 23 ديسمبر 1937 جاء ذلك بالمرجع التالي :
laszlo Nagy , Ferhat Abbas, personnage prématuré, personnage dépassé, p121,
Anciennes et Nouvelles élites Du Maghreb, ouvrage collectif, édition INAS, CERES,
EDISUD, 2003.
- 41- محمود قاسم ، الإمام ابن باديس، الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية، القاهرة، دار
المعارف، الطبعة الثانية، بدون سنة الطبع، ص 156 .
- 42 - Omar Ouredane , La question berbère dans le mouvement nationale Algérien,
Alger, Pigraphie, éd Dar EL IDJTIHAD, p105.
- 43- Mohamed Harbi , Nationalisme Algérien et identité berbère peuple méditerranéen ,
n°11, 1980, p 34.

